

دلائل الإعجاز

(لَيْسَ عَلَى [] بِمُسْتَنَكَّرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ) .
ولكنَّ لحديث الجنسيةِ هاهُنَا مأخذاً آخرَ غيرَ ذلك وهو أَنَّكَ تَعْمَدُ بِهَا إِلَى الْمَصْدَرِ
الْمَشْتَقِّ مِنْهُ الصِّفَةُ وتَوَجَّهْتُهَا إِلَيْهِ لَا إِلَى نَفْسِ الصِّفَةِ . ثُمَّ لَكَ فِي تَوَجُّيْهَا إِلَيْهِ
مَسَلَكٌ دَقِيقٌ وَذَلِكَ أَنَّكَ أَنْزَلْتَهُ لَيْسَ الْقَصْدُ أَنْ تَأْتِيَ إِلَى شَجَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ فَتَجْمَعَهَا لَهُ
وَتُوجِدَهَا فِيهِ وَلَا أَنْ تَقُولَ : إِنَّ الشَّجَاعَاتِ الَّتِي يُتَوَهَّسُ بِمَوْجُودِهَا فِي الْمَوْصُوفِينَ
بِالشَّجَاعَةِ هِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهِ لَا فِيهِمْ . هَذَا كَلَامُهُ مُحَالٌ بَلِ الْمَعْنَى عَلَى أَنَّكَ تَقُولُ : كُنَّا قَدْ
عَقَلْنَا الشَّجَاعَةَ وَعَرَفْنَا حَقِيقَتَهَا وَمَا هِيَ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي إِقْدَامِهِ
وَبَطْلَانِهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ شَجَاعٌ عَلَى الْكَمَالِ وَاسْتَقْرَيْنَا النَّاسَ فَلَمْ نَجِدْ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ
حَقِيقَةً مَا عَرَفْنَاهُ . حَتَّى إِذَا صِرْنَا إِلَى الْمُخَاطَبِ وَجَدْنَاهُ قَدْ اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الصِّفَةَ
وَاسْتَجْمَعَ شَرَائِطَهَا وَأَخْلَصَ جَوْهَرَهَا وَرَسَخَ فِيهِ سِنْدُهَا . وَيُؤَيِّدُنِي لَكَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ
اتِّفَاقٌ الْجَمِيعِ عَلَى تَفْسِيرِهِمْ لَهُ بِمَعْنَى الْكَامِلِ وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى أَنَّهُ اسْتَعْرَاقُ
الشَّجَاعَاتِ الَّتِي يُتَوَهَّسُ بِمَوْجُودِهَا فِي الْمَوْصُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ لَمَا قَالُوا : إِنَّكَ بِمَعْنَى الْكَامِلِ
فِي الشَّجَاعَةِ لِأَنَّ الْكَمَالَ هُوَ أَنْ تَكُونَ الصِّفَةُ عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ وَأَنْ لَا
يَخَالَطَهَا مَا يَقْدَحُ فِيهَا . وَلَيْسَ الْكَمَالُ أَنْ تَجْتَمَعَ آحَادُ الْجِنْسِ وَيَنْضَمُّ بَعْضُهَا إِلَى
بَعْضٍ فَالْغَرَضُ إِذَاً بِقَوْلِنَا : أَنْتَ الشَّجَاعُ هُوَ الْغَرَضُ بِقَوْلِهِمْ : هَذِهِ هِيَ الشَّجَاعَةُ عَلَى
الْحَقِيقَةِ وَمَا عَدَاهَا جُبْنٌ . وَهَكَذَا يَكُونُ الْعِلْمُ وَمَا عَدَاهُ تَخَيُّلٌ . وَهَذَا هُوَ الشَّعْرُ
وَمَا سِوَاهُ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَذَلِكَ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يَخْفَى .
وَضَرْبُ آخَرٍ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ فِي إِبْطَالِ أَنْ يَكُونَ : أَنْتَ الشَّجَاعُ : بِمَعْنَى أَنَّكَ كَأَنَّكَ
جَمِيعُ الشَّجْعَانِ عَلَى حَدٍّ : أَنْتَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ . وَهُوَ أَنَّكَ فِي قَوْلِكَ : أَنْتَ الْخَلْقُ
وَأَنْتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَدْ جُمِعَ الْعَالَمُ مِنْكَ فِي وَاحِدٍ تَدَّعَى لَهُ جَمِيعَ الْمَعَانِي
الشَّارِفَةِ الْمَتَفَرِّقَةِ فِي النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُبْطَلَ تِلْكَ الْمَعَانِي وَتَنْفِيَهَا عَنِ النَّاسِ بَلِ
عَلَى أَنْ تَدَّعِيَ لَهُ أَمْثَالَهَا . أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ فِي الرَّجْلِ : إِنَّهُ مَعْدُودٌ بِالْفِ رَجُلٍ
فَلَسْتَ تَعْنِي أَنَّهُ مَعْدُودٌ بِالْفِ رَجُلٍ لَا مَعْنَى فِيهِمْ وَلَا فَضِيلَةَ لَهُمْ بِوَجْهِهِ . بَلِ تَرِيدُ أَنْزَلَهُ
يُعْطِيكَ مِنْ مَعَانِي الشَّجَاعَةِ أَوْ الْعِلْمِ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مَجْمُوعاً مَا لَا تَجِدُ مَقْدَارَهُ
مُفْرَداً قِلاًّ إِلَّا فِي الْفِ رَجُلٍ . وَأَمَّا فِي نَحْوِ : أَنْتَ الشَّجَاعُ فَإِنَّكَ تَدَّعِيَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ
انْفَرَدَ بِحَقِيقَةِ الشَّجَاعَةِ وَأَنَّهُ قَدْ أُوتِيَ فِيهَا مَزِيدَةً وَخَاصِيَّةً لَمْ يُؤْتَهَا أَحَدٌ